السيد عمر مكرم يطرق الباب

وفي اليوم التالي، توجه السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، والشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر، ومعهما مجموعة من المشايخ والعلماء إلى الأزبكية واجتمعوا مع محمد علي في داره، حيث كان ينتظر هذه اللحظة ويستعد لها، بل ويدفعهم إليها من خلف الستار، وبعد أن تبادلوا جميعًا التحية والسلام مع الباشا، بدأ السيد عمر الحديث قائلًا:

- إننا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا، ولابد من عزله من الولاية..

فأظهر محمد علي تعجبه من هذا الكلام، وسأل سؤالًا يعرف إجابته جيدًا

- ومن تريدونه أن يكون واليًا؟

كان لاظ يتابع الحوار بإعجاب، ويتأمل سيده وهو يقرأ وجوه محدثيه، ويقود الحديث ويوجهه حيث يريد، وتحول إعجاب لاظ بما يفعله الباشا إلى نوع من المتعة، كما لو كان يشاهد عملًا فنيًّا رائعًا، أو مشهدًا تمثيليًّا بديع الإخراج، وجاهد لاظ نفسه ليتحكم في انفعالاته حتى لا تبدو على ملامحه مظاهر المتعة، وتابع الحديث في صمت، حيث أجاب السيد عمر على سؤال الباشا قائلًا:

- لا نرضى إلا بك، وتكون واليًا علينا بشروطنا..

وأضاف الشيخ الشرقاوي:

- ذلك لما نتوسمه فيك من العدالة والخير

فأجاب محمد علي قائلًا:

- لا يمكنني قبول ذلك إلا بقرار من الباب العالي!

- سوف نعمل على تحقيق ذلك، ونرسل مطالبنا للسلطان إن شاء الله، ولكن المهم الآن أن تقبل وتنقذ البلاد مما هي فيه..

ويوافق محمد علي في النهاية، ويتعهد رسميًّا أن يحكم بالعدل، واحترام حقوق الشعب المصري، وألا يأخذ أي قرار دون العودة إلى العلماء، بل إنه يضيف أنه إذا ما أخلف شيئًا من وعوده، فإن لهؤلاء العلماء أنفسهم الحق في عزله.

تُرى هل سيأتي يوم ويعيد أحدهم التفكير في هذا المشهد، إنه لن يستطيع منع نفسه من الضحك في مرارة، فأيَّة سذاجة كانت لدى هؤلاء المشايخ والعلماء حتى يصدقوا هذا الداهية الذي يلعب بهم جميعًا، ولكن على أية حال، كان محمد علي هو البديل الوحيد المتوفر لديهم لإنقاذ الشعب مما هو فيه، أو هكذا كانوا يعتقدون. وقاموا بالفعل بإرسال رسالة إلى السلطان العثماني، يطلبون منه تعيين محمد علي واليًا على مصر.